مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

قراءة في كتاب "وصف إفريقيا" للحسن بن محمد الوزان.

الدكتور محمد سليماني،
باحث وأكاديمي، المغرب.

ملخص:

يعتبر الحسن بن محمد الوزان من الرحالة المسلمين الذين عاصروا ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، وقد اعتبر بعض المؤرخين والكتاب أن رحلاته قدمت للفكر الإنساني ولعلوم الجغرافيا والتاريخ والاجتماع منفعة لاتقدر بثمن، ولا أدل على ذلك أن كتابه هذا " وصف إفريقيا " ترجم إلى عدة لغات وطبع عدة طبعات نظرا لأهميته.

الكلمات المفاتيح: الرحالة المسلمين، الحضارة العربية الإسلامية، الفكر الإنساني.

Abstract :

Readingin '' Description of Africa'' by El Hassan ben Mohamed Al-Wazzan.

El Hassan ben Mohamed Al-Wazzan is one of the Muslim explorers who lived through the prosperity of the Arabo- Islamic civicilazation in Andalusia.

Some historians and writers considered his jouxneys as a priceless benefit provided to the human thought and geographic sciences, whic is proved by the thing that the book '' Description of Africa'' was translated into many languages and published in several editions due to its significence.

Keywords : Muslim explorers, the Arabo- Islamic civicilazation, the human though.

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

1- نبذة عن حياة الحسن بن محمد الوزان:

ينتسب الحسن بن محمد الوزان إلى عائلة عربية كانت تستقر بالأندلس، وتعرضت لضغوط القوى المسيحية التي أخذت تكيل لهم الضربات حتى انتهى الأمر بالقضاء على نفوذ العرب بإسبانيا، وهجرة من بقي من المسلمين من هذه البلاد تبحث لها عن مأوى في البلاد الإسلامية الأخرى القريبة، وكانت أسرة الوزان من هذه الأسر التي هاجرت من غرناطة إلى شمال إفريقيا واستقرت أخيرا في فاس[1].

ومن خلال كتابه هذا "وصف إفريقيا"، نلتقط إشارات مهمة حول مكانته الاجتماعية، ومنها أن أسرته كانت أسرة مرموقة سواء في غرناطة أو بعد هجرتها إلى فاس، إذ يشير إلى أن أباه كان يقضي فصل الصيف عادة (بقصر عباد) المتواجد قرب حاضرة فاس لهوائه العليل وطقسه الجميل، كما يشير أيضا إلى أنه (أي أباه) كان يسافر إلى بعض الجهات بالريف فيما يتعلق بعمله، أما عمه فقد كان شخصيه مهمة، إذ كان يشتغل سفيرا يمثل حاكم فاس في السفارات المهمة، وقد صحبه مرة إلى تامبوكتو (مالي حاليا).

لقد تعددت الأسماء والصفات التي أطلقت عليه، فقد عرف في المراجع الأجنبية باسم (Leo Africanus) أي الأسد الإفريقي، كما عرف باسم (Giovanni Lone) وأحيان سمي (ليون الإيبيري) أو (الغرناطي) أو (الفاسي)، فلفظ الإيبيري أو الغرناطي يرجع لارتباطه بغرناطة المتواجدة في شبه جزيرة إيبيريا، أما الفاسي

[1]- بسقوط غرناطة في يد المسيحيين سنة (897 هـ – 1492 م) في عهد فرديناند الخامس، الذي ارتقى عرش مملكة أراغون في عام 1467 بعد وفاة أخيه الملك يوحنا الثاني، شرع في تعذيب وطرد المسلمين وإذاقتهم كل أصناف العذاب والتنكيل، وتسليط محاكم التفتيش عليهم بغرض اجتثاث نسلهم ومحاربة ديانتهم الإسلامية ونشر ديانته المسيحية .

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

فنسبة إلى مدينة فاس التي ارتبطت بفترة هامة من حياته وتكوينه الفكري، وكل هذه الصفات تتصل بناحية خاصة من نواحي حياته، فصفة الإفريقي لعلها ترجع إلى أن كتابه الهام هذا الذي كان سبب شهرته، كان يتعلق بتاريخ إفريقيا ووصفها والأشياء الهامة المتصلة بها[1].

أما اسم (ليون أو ليو) أو (جيوفاني) فهو يرتبط باسم البابا ليو العاشر الذي جلس على

كرسي البابوية في الفترة (1513- 1521)، وهو من أسرة آل مديتشي (Medicci)[2] ،

وكان اسمه قبل أن يصل إلى كرسي البابوية (Giovanni de Medicci).

ويمكن استنتاج تاريخ ميلاده من إشارته في كتابه لبعض الأحداث التاريخية، فعند كلامه عن سقوط مدينة أسفي في يد البرتغال، يشير إلى أن عمره كان في ذلك الوقت عشر سنوات، ولما كان استيلاء البرتغاليين على أسفي قد تم في عام 1508م، فهذا يعني أن مولده كان في سنة 1498م، وبالتالي تكون أسرته قد بقيت في غرناطة مدة ست سنوات تقريبا بعد سقوطها في يد المسيحيين.

[1]- أنظر الطبعة الإنجليزية التي نشرها (John Pory) في عام 1600 تحت إسم:

The history and Description of Africa and of the Notable thing theren contalned written by Al Hassan Ibn Mohammed al- Wazan Al Fasi, A moor, Baptised as Giovanni Leone, But Better known as Leo Africanus.

[2]- أسرة (آل مديتشي) من الأسر التي برزت في عهد النهضة الإيطالية، وقد حكمت فلورنسا فترة من الزمن، وبرز منها عدد الأفراد منهم (البابا ليو) الذي لعب دورا هاما أثناء حركة مارتن لوثر (1483- 1546).

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

ومعلوم أن كثير من المسلمين هاجروا من الأندلس بعد سقوط غرناطة، وقد لجأ عدد منهم إلى المغرب، واستقر أغلبهم في مدن تطوان والرباط وسلا ثم فاس، وقد لعب هؤلاء المهاجرون دورا هاما في تاريخ هذه البلاد، إذ كانت منهم أسر حاكمة غنية، كما حملوا لواء الجهاد والكفاح ضد البرتغاليين والإسبان في البحر الأبيض المتوسط والثغور الشمالية لإفريقيا التي تعرضت لأطماعهم، وأصبح لهم أسطول قوي يعمل في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ضد السفن البرتغالية والإسبانية بالذات، حتى إن بعض الكتاب الأوربيين أطلقوا على البحارة العاملين في هذا الأسطول إسم (قراصنة سلا Les corsaires de Salé)[1].

في مدينة فاس، تلقى الحسن بن محمد الوزان علومه الأولى في مدارسها، وتعلم في جامع القرويين[2]، الذي كان يعتبر كعبة الراغبين في التزود بالعلوم الدينية والنظرية، وقد كانت مدينة فاس في ذلك الوقت من أهم مراكز العلم المعرفة في العلم العربي، يأتي إليها طلاب العلم من كل بقاع العالم الإسلامي، وكانت لها مكانة لا تقل عن مكانة كل من القاهرة وقرطبة وغرناطة، ولعل الظروف السياسية التي أحاطت بالعالم الإسلامي والتي تمثلت في انتهاء نفوذ العرب السياسي في إسبانيا، ساهمت في ازدهار منار العلم في فاس، إذ أصبحت

[1]- المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج.2، المطبعة الأزهرية، القاهرة، 1896م، ص: 617.

[2]- يرجع بناء جامع القرويين إلى عهد الأمير (يحيى بن محمد بن إدريس)، وهو من الملوك الأدارسة، تولى الحكم في عام 849م، وقد بنته الأميرة فاطمة الفهرية القيروانية المعروفة ب (أم البنين) من مالها الخاص، وأصبح بعد ذلك موضع رعاية الملوك الذين أدخلوا عليه عدة تحسينات، وتطورت فيه الدراسة حتى أصبح بمثابة جامعة يؤمها طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم، وقد ذكر الوزان بأنه قرأ في جامع القرويين بعض كتب الأدب والمنطق والعقائد وحفظ كتب الغزالي.

المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405

تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

بلاد المغرب بالذات المأوى الذي احتضن الكثير من المثقفين والعلماء والمهاجرين من إسبانيا، ودراسة الأوضاع العلمية والفكرية في المغرب خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تعطي لنا فكرة عن الجو العلمي الذي نشأ فيه الوزان والذي أسهم في تكوينه.

كما يشير الحسن بن محمد الوزان في كتابه إلى عشرات من المفكرين والفلاسفة المسلمين الذين قرأ لهم وتأثر بكتاباتهم مثل إبن رشد، الفارابي، إبن سينا، إبن خلدون، عبد الله البيطار، البكري، الإدريسي، المسعودي، وهذا يدل على أنه نال قسطا وافرا من فنون العلم المختلفة، واطلع على أمهات الكتب المعروفة في وقته في أصناف المعرفة المتعددة.

2- البيئة التي عاش فيها الحسن بن محمد الوزان:

لقد عاصر الرحالة الحسن بن محمد الوزان فترة تعتبر من الناحية السياسية فترة حاسمة سواء في المغرب أو في أوربا، فقد كان المغرب يشهد غروب شمس دولة بني مرين وزيادة نفوذ الوطاسيين واستبدادهم بالأمر، لكن لم تستقر لهم الأمور بمفردهم طويلا، إذ اشتد في هذه الفترة ساعد أمراء مراكش (السعديين) وخاضوا ضد الوطاسيين عدة حروب انتهت بانتصار السعديين ودخولهم مدينة فاس سنة 956 هجرية، وأدى هذا الاضطراب السياسي إلى ضعف السلطات الحاكمة في وقت كان فيه المسلمون في الأندلس يتلقون ضربات متتالية من القوى المسيحية التي كانت قد أخذت تفرض نفوذها على البلاد.

أما المشرق الإسلامي فقد كان في هذه الفترة يشهد ظهور دولة فتية هي الدولة العثمانية، التي استطاعت فتح القسطنطينية في عام 1453م، كما استطاع السلطان العثماني سليم الأول بين عامي (1516 – 1517م) أن يقضي على نفوذ

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

المماليك في الشام ومصر وغرب شبه الجزيرة العربية، واستولى على منطقة رودس وبسط سيادته على بلاد الجزائر وتونس وطرابلس وبرقة.

لكن رغم ظروف هذا الاضطراب السياسي التي كانت تسود بالبلاد العربية الإسلامية، فقد كانت بلاد المغرب العربي التي عاش فيها الوزان تنعم بنهضة علمية وفكرية شاملة، إذ كانت مدينة فاس المغربية مركزا للعلم والمعرفة في العالم العربي، يأتي إليها طلاب العلم من كل بقاع العالم الإسلامي والأوربي، وكانت شهرتها في هذا المجال تضارع شهرة قرطبة وغرناطة في أوج مجدها ونهضتها.

أما في أوربا، فقد كانت في هذه الفترة قد بدأت تتخلص من التخلف الحضاري الذي خيم عليها خلال العصور الوسطى، وكانت مساهمة الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة واضحة في قيام هذه النهضة الأوربية، أما الأندلس بحضارتها المزدهرة فقد كانت من أهم مصادر الإشعاع الحضاري على أوربا.

3- القيمة العلمية لكتاب "وصف إفريقيا" لمؤلفه الحسن بن محمد الوزان:

هذا الكتاب ليس الإنتاج الوحيد للمؤلف، لكنه الكتاب الذي كان سبب شهرته، ويحيط الغموض بالظروف التي ألف فيها هذا الكتاب، والطريقة التي اتبعها الكاتب في إثبات معلوماته، ذلك أن هذا الكتاب ظهر لأول مرة حين عثر الإيطالي (Ramusio) وهو من أسرة مؤسسة (Hakluyt) في عام 1550م على النسخة الخطية الإيطالية للكتاب ونشرها في ثلاث مجلدات مع وضع مقدمة لها في مجموعة من الرحلات[1].

[1]- نشرت هذه الطبعة منذ حياة الوزان، ومنها نعرف أنه (أي الوزان) انتهى من كتابه باللغة الإيطالية في 10 مارس 1526م، أنظر أيضا:

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

ومنذ ظهور هذه الطبعة الإيطالية للكتاب، بدأ العالم الغربي يدرك أهمية الكتاب، إذ ترجم إلى عدة لغات وظهرت له عدة طبعات باللغة الواحدة، ففي سنة 1956م قام المترجم Jean Temporal بترجمة الكتاب إلى الفرنسية وطبعه في مدينه ليون وإهدائه لولي عهد فرنسا في ذلك الوقت ([1])، كما قام الإنجليزي John Pory بأول ترجمة لهذا الكتاب باللغة الإنجليزية سنة 1600م[2]، وظهرت ترجمة إسبانية أيضا لهذا الكتاب في عام 1940م[3].

لقد اعتمد المستكشفون الأوربيون على كتاب **"وصف إفريقيا"** للوزان في معظم رحلاتهم وأسفارهم الاستكشافية، فقد صرح المستشرق الألماني هارتمان Harmatmann في القرن الثامن عشر بأن كتاب ليون الإفريقي كنز من الذهب، ولولاه لخفيت عنه أشياء كثيرة، أما الرحالة الإنجليزي Barth الذي وصل إلى تونس سنة 1849 ضمن حملة لكشف وسائل تنشيط التجارة عبر الصحراء الإفريقية الكبرى للقضاء على تجارة الرقيق، فقد أبدى إعجابه بما كتبه ليون الإفريقي ودقته في تسجيل كل ما رآه، ولم يقتصر أثر كتاب ليون على ذلك، فقد امتد الأمر إلى رسامي الخرائط، وأخص بالذكر هنا كلا من Ramusio و Pory،

داود محمد، تاريخ تطوان، ج. 1، نشر معهد مولاي رشيد، تطوان، المغرب،1959، ص: 167.

[1] - Historial Description de l'Afrique, Ecrite par Jean Léon Africain premièrement en langue arabe puis en Toscane, mise en français par Jean Temporal (Lyon 1956).

[2] - كان John Pory في هذه الفترة طالبا بجامعة كامبريدج (Cambridge)، وقد أهدى كتابه المترجم هذا إلى السيد روبرت سيسل Robert Cecil سكرتير الدولة آنذاك.

[3] - نشر هذه الطبعة الإسبانية معهد فرانكو (Institue General Franco) مع تحقيقات باللغة العربية والإسبانية، ونسخة من هذه الطبعة موجودة بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم C/ 4869.

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

اللذان عملا على نشر خرائط إفريقية بناءا على وصف ليون للمناطق التي زارها، وقد ظلت هذه الخرائط حتى وقت متأخر، المصدر الوحيد لرسامي الخرائط[1].

4- ملخص لكتاب "وصف إفريقيا" لمؤلفه الحسن بن محمد الوزان:

ألف الحسن بن محمد الوزان كتابه **"وصف إفريقيا"** باللغة الإيطالية، وترجمه إلى الفرنسية الطبيب الفرنسي الجنرال أ. إيبولار A. Epaulard، كما ترجمه من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية الدكتور عبد الرحمان حميدة، وقام بمراجعته الدكتور علي عبد الواحد، وقسم المؤلف كتابه إلى تسعة أقسام (أبواب)، ولا تتوزع هذه الأقسام بالتساوي من حيث عدد الصفحات.

- في **القسم الأول** تحدث الحسن بن محمد الوزان عن إفريقيا وسكانها بصورة عامة، فبدأ بتفسير سبب تسمية القارة بإفريقيا، وأرجع ذلك إلى ابن خلدون وأبي الفداء وغيرهما، ثم عمل على إعطاء حدود لهذه القارة من النيل شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا[2]، وبعد ذلك قسمها إلى أربعة أقسام وهي بلاد البربر، نوميديا، ليبيا، ثم أرض الزنوج، وقسم كل من الأقسام الأربعة إلى عدة ممالك[3]، ثم انتقل بعد ذلك إلى دراسة سكان إفريقيا فتحدث عن أصلهم وقبائلهم وعاداتهم ودياناتهم ولغاتهم ومناخهم وأعمارهم وعلاقتها بالبيئة التي يعيشون فيها، كما تعرض لبعض الأمراض التي تصيب الأفارقة كالجدري مثلا

[1]- شوقي الجمل، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، الطبعة الأولى، منشورات دار الثقافة، القاهرة، 1971، ص: 494.

[2]- إفريقيا بالنسبة له، هي المناطق الواقعة شمال خط الاستواء، إذ لم يتعرض لما هو جنوب ذلك.

[3]- البعض شبه هذا التقسيم بما ورد في مقدمة ابن خلدون وبمنهجه في المعالجة أيضا، أنظر.

محمد المهدي الحجوي، حياة الوزان الفاسي وآثاره، بحث قدم لمؤتمر المستشرقين بفاس سنة 1933، وتوجد نسخة من هذا البحث بالخزانة العامة في الرباط تحت رقم 2162 /C .

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

وكيفية وصوله إلى هاته القارة، وأهم الخصائص المميزة لهم كاهتمامهم بالفنون والعلوم الرياضية والفلسفة والتنجيم، وأهم خصالهم المتمثلة في الوفاء والشرف وحب الترحال والتنقل، والرذائل التي تشيع بينهم كسرعة الغضب والقلق، وقبل نهاية هذا القسم اعتذر المؤلف عن تركيزه فقط على هذه القارة، وبرر ذلك بأنها القارة التي ينتمي إليها وتثقف فيها وأتيحت له فرصة التجول فيها.

لقد ركز المؤلف في هذا القسم على دراسة عامة للقارة الإفريقية تناولت مختلف مناحيها الطبيعية والمناخية والاقتصادية والاجتماعية والبشرية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على دقة ملاحظة المؤلف ونظرته الشاملة، وإلمامه بعدد من المعارف والعلوم التي يسرت دراسته.

- لقد خصص المؤلف **القسم الثاني** في كتابه للحديث عن مملكة مراكش، إذ تحدث عن مساحتها وتأسيسها وحوانيتها ومخازن الكتب بها، وعن منار الكتبية العظيمة[1]، الذي بني هو ومنار إشبيلية ومسجد حسان بالرباط على نسق واحد، كما أشار في هذا القسم إلى الرحلة التي قام بها عمه كسفير عن ملك فاس إلى ملك تومبوكتو والذي كان من مرافقيه، ويذكر أشياء طريفة بخصوص هذه الرحلة، فيذكر مثلا أن عمه تلقى دعاوي من بعض الأمراء في المناطق المجاورة ليزورهم بسبب شهرته، لكمه اعتذر بمبرر أنه مكلف بمهمة رسمية فلا يجب أن يغير خط السير المرسوم له.

وفي هذا القسم أيضا تحدث الوزان عن وطنه الذي عاش فيه، وأصل كل مدينة به ومؤسسها وسبب تسميتها والتطورات التاريخية التي مرت بها، كما

[1]- أشار إلى أن منار الكتبية يبلغ ارتفاعه ما بين 59 و 67م، شيده الأمير يعقوب المنصور، وهو من الخلفاء الموحدين الذي توفي سنة 1184.

المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405

تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

تعرض أيضا للثغور المغربية المحتلة مثل أسفي وأزمور، وأسهب في الحديث عن سقوطها في أيدي البرتغاليين وما ترتب على ذلك من هجرة كثير من سكانها إلى مدن سلا وفاس فارين من الاحتلال البرتغالي.

- أما **القسم الثالث** من المؤلف، فخصص ليون الإفريقي شطرا كبيرا منه للحديث عن مملكة فاس، إذ تحدث عن تشييدها ووصف منازلها وجامع القرويين منارتها، وكذلك مدارسها ومستشفياتها وحماماتها وفنادقها وأسواقها وصناعها التقليديين وجودة منتوجاتهم، كما تحدث عن عادات سكانها في الزواج والاحتفالات الدينية وفي الأكل والشرب، وركز أيضا على نظام الإدارة والحكم فيها باعتبارها حاضرة الحكم، وأهم التقاليد التي كانت تدار بها شؤون القصر الملكي أو ما يسمى بالبروتوكولات الملكية، وأرجع تسمية منطقة القيصرية المجاورة لفاس إلى النفوذ الروماني بشمال إفريقيا، كما تطرق أيضا لمدينة فاس الجديدة التي تبعد عن المدينة القديمة بحوالي ميل تقريبا، والتي كانت تسمى المدينة البيضاء.

في هذا القسم أيضا تحدث الوزان عن عدة مدن مغربية أخرى كالرباط وسلا والمعمورة ومكناس والقصر الكبير وأصيلا، فذكر بأن الرباط بناها يعقوب بن يوسف المنصور على البحر لتكون مدينة بحرية يسهل فيها مرابطة جيشه والسيطرة منها على المناطق الإسبانية الخاضعة له، أما مدينة سلا فأكد على أن الرومان هم الذين بنوها على نهر أبي رقراق على بعد ميلين من المحيط، وبخصوص المعمورة فوضح أن يعقوب المنصور أسسها عند مدخل نهر سبو لتكون منطقة دفاعية ضد محاولات الغزو الأجنبي، ويذكر أيضا أنها كانت ميناءا تجاريا هاما تتاجر في عدة منتوجات كالعسل والشمع والصوف والجلود والأخشاب، لكنها فقدت أهميتها التجارية بعد احتلال البرتغاليين لها.

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

وبالنسبة لمدينة مكناس، فتحدث المؤلف عن موقعها وتسميتها وحدائقها والفواكه التي كانت تشتهر بها كالعنب والتين والبرتقال والخوخ، وعن الصراع الذي قام بين حكامها وبين ملك فاس الذي قام بمحاصرتها، ويقول أيضا بأنها قاومت هذا الحصار لأنها كانت مدينة حصينة وغنية، وفيما يتعلق بمدينة القصر الكبير، فبين أن المنصور سلطان مراكش هو الذي قام ببنائها، فذكر بظروف تشييدها، إذ أكد أن المنصور ضل الطريق أثناء رحلة صيد، فأكرمه صياد من هذه المنطقة وأحسن وفادته وإيوائه، فكافأه الملك بمنحه قصرا أصبح النواة الأولى لهاته المدينة[1].

وفي حديثه عن مدينة أصيلا، أكد ليون الإفريقي بأن الرومان هم من قاموا ببنائها، وتابع الحديث عن تاريخها حتى استيلاء البرتغال عليها، وذكر بأنه شارك بنفسه في بعض الحملات التي أرسلها ملك فاس ضد البرتغاليين في هذه المدينة.

- وفي ما يتعلق **بالقسم الرابع**، فأفرده الحسن بن محمد الوزان للحديث عن مملكة تلمسان، إذ تحدث عن حدودها وتتبع تاريخها حتى حكم الأسرة الزيانية، التي يقول بأنها بقيت تحكم هذه المملكة ما يقرب من ثلاثمائة عام[2]، كما أكمل الحديث عن تطور هذه المدينة التي كانت صغيرة وتحولت إلى مدينة كبيرة وصلت

[1]- لعبت هذه المدينة (أي القصر الكبير) دورا هاما في تاريخ المغرب، وذاعت شهرتها بعد احتضان السهل المجاور لها لمعركة وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة، التي انتصر فيها المغاربة على الاحتلال البرتغالي، وقتل في هذه المعركة الملك البرتغالي سبستيان Sébastien.

[2]- بدأت سلطة حكم الأسرة الزيانية في تلمسان بحكم أبو يحيى (يغمراسن بن زيان) سنة 1236م، وقد مر حكم هذه الأسرة بمرحلتين أساسيتين، انتهت المرحلة الأولى بحكم أبي تاشفين عبد الرحمان الأول بن موسى، لكن نجح المرينيون في القضاء على هذه الدولة سنة 1337م، وانبثقت هذه الدولة من جديد على يد أحمد بن موسى الثاني سنة 1359م، لكن نجح عروج أخيرا في أن يحتل تلمسان عام 1517م.

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

ذروة مجدها في عهد حكم أبو تاشفين عبد الرحمان الأول بن موسى، وقدم وصفا دقيقا لمساجدها ومعاهدها ومتاجرها وسكانها وعاداتهم، كما انتقل إلى الحديث عن كل من وهران ومستغانم ثم الجزائر، التي كانت في فترة من الفترات خاضعة لنفوذ ملك تلمسان، لكن حين ضعفت الأسرة الحاكمة بتلمسان، أصبحت هذه المدن مطمع أنظار الأتراك العثمانيين والإسبان.

- لقد تطرق ليون الإفريقي في **القسم الخامس** من كتابه إلى مملكة بجاية بتونس، حيث وصف مدنها المشتملة على بونة، وقرطاج، وقسنطينة[1]، وتونس، والمهدية[2]، والقيروان[3]، وصفاقس، وقابس، وتحدث عن ظروف تشييد هذه المدن ومآثرها وأهم الأعمال التي كان تقوم بها ساكنتها، ومختلف عاداتهم وتقاليدهم، كما أشار إلى تعرض بعض هذه المدن للظواهر الطبيعية والجغرافية كتعرض بعض الموانئ للعواصف البحرية أو ما أطلق عليه بطغيان البحر، ثم أتمم كلامه بالحديث عن جزيرة جربة الواقعة على مسافة قليلة من قابس، وذكر بأنها المكان الذي أسره فيه القرصان الإيطاليون قبل حمله إلى روما، وأشار إلى أن تربتها خصبة وسكانها يشتهرون بصناعة نوع خاص من الأقمشة يتاجرون به في الإسكندرية وتونس، وأكد أن ملك إسبانيا وقتئذ فرديناند Firdinando حاول

[1]- أشار إلى أن تشييد قسنطينة يرجع للنفوذ الفينيقي على الشمال الإفريقي، كما يذكر أنها شهدت صورا من الكفاح بين القرطاجيين والرومان.

[2]- أشار الوزان إلى أن الخليفة الشيعي عبد الله المهدي مؤسس الدولة العبيدية هو باني هذه المدينة، وقد اختار موضعها بين كل من سوسة وصفاقص، وانتقل إليها واتخذها مركزا لحكمه ، وبنى بها الجامع ودارا للصناعة.

[3]- أشار في هذا الصدد إلى بنائها في قلب البلاد التونسية من طرف عقبة بن نافع الفهري في سنة 50 هجرية، الذي أحاطها بسور عظيم، وجعل في وسطها الجامع الذي نسب إليه، وبنى بها دارا للإمامة، وكان بناؤها الخطوة الأولى نحو ظهور ولاية إسلامية بهذه البلاد.

المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405

تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

الاستيلاء على الجزيرة، لكن سكانها استطاعوا أن يوقعوا بالجنود الإسبان، لكن بعد إرسال الإمبراطور شارل الخامس لأسطول كبير، أجبرت سلطات الجزيرة على توقيع اتفاق تدفع بموجبه جزية سنوية للإسبان قدرها 5000 دينار ذهبا.

- في **القسم السادس** تحدث الوزان عن طرابلس، ولبدة، وفزان، والصحراء الليبية التي قسمها إلى خمسة أقسام حسب القبائل التي تغلب على كل قسم منها.

- أما **القسم السابع** فخصصه الرحالة الحسن بن محمد الوزان للحديث عن أرض الزنوج (ممالك السودان الغربي)، التي حددها في خمس عشرة مملكة، يقول أنها تقع بالقرب من نهر النيجر أو أحد فروعه، ومن هذه الممالك مملكة (مالي) التي ذكر بأنها تمتد على مساحة 300 ميل، وتتميز برقيها وتقدمها، إذ بها المستشفيات والمعابد، وقد انتشر الإسلام بين سكانها، ووصلت قوتها إلى درجة أنها استطاعت بسط نفوذها على مساحات واسعة، واشتهرت بثرواتها وتصديرها للذهب والعبيد، أما عن مملكة (تومبوكتو)[1] ، فذكر بأن مؤسسها هو منسا سليمان، وتكثر بها المراعي والأراضي الزراعية، وبها عدد من الأطباء القضاة والعلماء ورجال الدين، وكانت عملتها ذهبية دون أية علامة مميزة لها، وكل من يقابل ملكها يركع على ركبتيه.

ومن الممالك الأخرى توجد مملكة (جاو) التي كانت عاصمة إمبراطورية صنغاي، وذكر المؤلف بأنها تقع جنوب تومبوكتو بحوالي 400 ميل تقريبا، وتعتبر

[1]- ذكر أن تومبوكتو بنيت في نهاية القرن الخامس الهجري، وأن الطوارق هم الذين بنوها، وأضحت مركزا رئيسيا للتجارة يفد إليها التجار من درعة وسوس وسجلماسة وفاس وغدامس وفزان ومصر.

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

مركزا تجاريا هاما للأقمشة والقمح والسمك والخمور والفواكه والأرز، كما يوجد بها سوق كبير للرقيق. وبالنسبة لمملكة (كانو)، فحسب المؤلف كانت تقع شرق النيجر، وتشتهر بخصوبة تربتها وكثرة فواكهها، وهناك مملكة أخرى تسمى (بورنو) التي تقع شمال مملكة (كانو)، ويذكر ليون الإفريقي أن ملكها كان يقوم كل عام بغزوة، ويعود من غزواته بالعبيد، ونظرا لوجود الذهب بكثرة في هذه المملكة، فإن كل الأواني والأطباق التي يستخدمها الملك، بل حتى سلاسل الكلاب الخاصة به كانت تصنع من الذهب.

- لقد تحدث الوزان في **الفصل الثامن** من مؤلفه عن مصر التي زارها كما يقول ثلاث مرات في طريقه للقسطنطينية، إذ عمل على وصف مدنها وتاريخها والفيضانات التي كانت تحدث بنهر النيل بين الفينة والأخرى، كما أسهب في حديثه عن مدينة القاهرة في وصف شكل بنائها وأبوابها وحوانيتها ومدارسها وتجارها وعادات سكانها وقصور مماليكها بمنطقة الجيزة، كما تعرض للمناصب المدنية والعسكرية في دولة المماليك، وتمكن بذلك ليون الإفريقي من إعطاء صورة دقيقة لمصر المملوكية التي زارها في فترة السلطان سليم الأول.

- أما **الفصل التاسع** والأخير من الكتاب، فأفرده الوزان للحديث عن الأنهار الرئيسية والمخلوقات الغريبة والنباتات والمعادن الإفريقية، فبالنسبة للجزء المتعلق بالأنهار فتحدث فيه المؤلف عن نهر تانسيفت الذي يصب في المحيط الأطلسي، ثم أم الربيع وأبو رقراق ونهر النيل الذي كان يعتقد أنه ينبع من جبال القمر، لكنه يذكر أيضا أن التجار الإثيوبيين كانوا يذكرون بأنه ينبع من بحيرة ضخمة في الجنوب.

مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
المجلد :7 / العدد: 2 ISSN :2353-0472
E-ISSN :2600-6405
تاريخ الارسال : 2019/07/19، تاريخ القبول: 2020/02/12، تاريخ النشر: 2020/06/16

وفي الجزء المتعلق بالحيوانات والنباتات الإفريقية، تحدث الرحالة الحسن بن محمد الوزان عن الفيلة والزرافات والجمال والخيول والنعامات والطيور الجارحة والحيوانات المائية كالتماسيح، إضافة إلى أسراب الجراد التي كانت تهاجم المدن والأرياف وكانت تقضي على الزرع وتنشر الدمار والخراب فيها.

خاتمة:

إن كتاب **"وصف إفريقيا"** للرحالة العربي المغربي الحسن بن محمد الوزان ساهم بشكل كبير في التعريف بالقارة الإفريقية، واعتبر بحق حسب الباحثين لبنة أساسية في تقدم البحث العلمي وتطور المعارف الجغرافية والتاريخية التي كانت مجهولة عنهم، وأن عشرات الكتاب استفادوا منه واعتمدوه كمرجع أساسي في أبحاثهم، واعتبره بعض الرحالة والجغرافيين والكتاب المتأخرين له دور مهم وأساسي في ازدهار أدب الرحلات والأسفار.

لائحة المصادر والمراجع:

- الجمل شوقي، تاريخ كشف إفريقيا واستعمارها، منشورات دار الثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1971.

- الحجوي محمد المهدي، حياة الوزان الفاسي وآثاره، بحث قدم لمؤتمر المستشرقين بفاس سنة 1933، وتوجد نسخة من هذا البحث بالخزانة العامة في الرباط تحت رقم C/ 2162 .

- داود محمد، تاريخ تطوان، ج. 1، نشر معهد مولاي رشيد، تطوان، المغرب، 1959.

- المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج.2، المطبعة الأزهرية، القاهرة، 1896م.